"التقاطعات الثقافية في شخصية محمد بن تاويت الطنجي ودورها في مكونه الفكري"

د. عزالدين معميش

أستاذ مشارك بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية- جامعة قطر

مقدمة:

يعدُّ المحقق والمفكر ابن تاويت الطنجي من الشخصيات المنسية في الفضاء المغاربي عموما والمغربي خصوصا، ولعلَّ ذلك يعود بالأساس إلى تفضيله المقام والاستقرار بتركيا، ثم الشخصية النقدية المستقلة التي أشبهت في بعض نواحيها شخصية ابن خلدون، والتي لا تعجب الأنظمة السياسية المغلقة في غالب الأحيان.

ومع ذلك فقد كُتبت الكثير من المقالات والبحوث في دراسة تراثه وشخصيته؛ ولكن القليل منها من اعتمد منهجا استقصائيا ووظيفيا؛ حاول من خلاله الوصول إلى عناصر الوعي؛ الباطنة والظاهرة المتحكمة في شخصية الطنجي؛ والتي مكّنته من صبر ذوي العزيمة في التفرغ للبحث والتحقيق والمقارنة لأشهر المصنفات وأجودها وفي الوقت نفسه تكون له مكانة المفكر المؤثر؛وهذه لا يستطيعها إلاّ من استفرغ كل جهده واعتكف بين الكتب مطالعا ومنقّبا و مقارنا ومعلّقا؛ و الكتابة المباشرة دون التحقيق بكثير في هذا الجهد، هذا من جهة ؛ومن جهة ثانية فإن هناك عناصر جد مهمة يغفلها الباحثون في تقويم مشروع الطنجي الفكري والثقافي؛ وهي جمعه بين عدة أنساق وثقافات ولغات؛شكّلت له شخصية فسيفسائية تركت أثرها في نظرته إلى الكثير من القضايا في الكون والحياة؛ حيث ارتفع عن العصبية القومية يوم أن كان المد القومي العربي في عنفوانه[1]،و عشق

(1)انظر:نديم البيطار ،الإيديولوجيا الثورية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع ،بيروت، لبنان ،ط2، 1402هـ، 1982.

اللغة التركية والإسبانية لما فيهما من مخزون جمالي وشعوري عميق أحسّ من خلاله بالانتماء العميق للحضارة الإسلامية بامتداداتها التاريخية والجغرافية[1]، دون نزعة عرقية أو طائفية أو مذهبية.

كما لا يقف الباحثون كثيرا عند سر اهتمام الطنجي بابن خلدون ويقاربون الموضوع من زاوية علمية بحتة؛متمثلة في منهجية التحقيق وذلك هدر لمقاصد كبرى أراد الطنجي الوصول إليها،كما أننا نكتب عن الثقافة العربية والإسلامية، وفي بالنا باستمرار ما للأدب الجغرافي الذي أولاه الطنجي عناية فائقة من أهمية استثنائية ضمن منجزات هذه الثقافة عبر عصور ازدهارها:(آلاف الناس قرأوا ابن خلدون، لكن قلة قليلة منهم انتبهت إليه كرحالة، والفضل في هذا يعود إلى عالم كبير من المغرب هو ابن تاويت الطنجي. لكن من يحيي تراث العلماء الذين رحلوا عن عالمنا؟ لابد من أطر جامعة وفضاءات للحوار)[2].ثم في اهتمامه بالتوحيدي ما يدل على نزعة الأنسنة الدينية التي أراد تأصيلها والتي أُهدرت في عالمنا العربي والإسلامي.

كما لا يفوتني في هذه المقدمة أن أشير إلى مسألة مهمة أوظّفها على ضوء ما خبرناه في المسيرة الثقافية والعلمية في وجود عنصر المنافسة الذي يدفعك قدما لمزيد من الإنتاج والتفوّق؛هذه المسألة التي قلما يركّز عليها الباحثون في تراث الطنجي[3]؛ هي وجود شخصية قريبة جدا منه وكانت على ما يبدو عامل منافسة في امتلاك عقلية التفوق والإبداع؛ هذه الشخصية تتمثل في ابن عم الطنجي والذي يحمل الاسم نفسه؛وهو العلاّمة و الأديب الكبير محمد بن تاويت التطواني[4] الذي كان قرينا للطنجي؛ ودرس بداية في فاس أين كان ابن عمه،ثم ابتعث إلى القاهرة في الفترة نفسها عند وجود

(2) انظر: نوري الجرّاح، المشروع الجغرافي العربي ارتياد الآفاق: جسر بين المشرق والمغرب وبين العرب والعالم ، جامعة الكويت، ملتقى 2004.

(1) المرجع نفسه.

(2) معظم الذين كتبوا عن حياة العلمين لم يقفوا على العلاقة التي قد تكون بينهما،ومما لاشك فيه أن أبناء عمومة يدرسان معا في جميع الأطوار بما فيها طور الغربة لديهما الكثير مما يدوّن في هذه العلاقة.

(3) انظر في المقارنة:أفلاي زاهية، جهود العلامة محمد بن تاويت التطواني في خدمة التراث،موقع منتديات أهل الحديث بتطوان.www.tetouanhadit.com.

(4) المرجع نفسه.

الطنجي هناك[1] ؛ وأجاد التركية والفارسية والإسبانية ؛ وذلك ما امتلكه الطنجي أيضا[2]، لكنه لم يشتهر شهرته؛ومرد ذلك عند بعض الباحثين هو مكوث الطنجي بتركيا التي بجّلته ومكّنته من وسائل الشهرة بما لديها من إعلام ورصيد [3]،ولأنها كانت وإلى زمن قريب عاصمة الخلافة الإسلامية التي تتجه إليها الأنظار. وعليه سنقف على هذا العامل المهم ونجري مقارنة صغيرة بين العلَمَيْن علّنا نعثر على أبعاد أخرى في شخصية الطنجي.

وهذه الورقة تبحث في الأنساق الثقافية التي تقاطعت في شخصية الطنجي ضمن النسيج الإسلامي الفسيح؛مابين نزعات دينية وإنسانية و جغرافية وتاريخية،و ثقافة عربية وتركية وفارسية وإسبانية...وغيرها،وتأثيرات هذه التقاطعات في المساهمات الفكرية للطنجي،وتحويلها إلى رافد علمي وحضاري؛والإسقاطات الواقعية لكل ذلك على الواقع الإسلامي.

وقد قسّمت البحث إلى قسمين:

المبحث الأول :ابن تاويت :النشأة والتكوين .

المبحث الثاني:المؤثرات والتقاطعات الفكرية والعلمية واللغوية في شخصيته .

المبحث الأول: النشأة والتكوين:

يعد محمد بن محمد بن تاويت الطنجي سليل عائلة عريقة في العلم والجهاد من منطقة قبائل الريف المغربي؛ذات الثنائية الثقافية؛ الأمازيغية والعربية، ومن أبرز وجهاء وعلماء هذه الأسرة المجاهدة،العلامة المجاهد الشريف العلمي محمد بن تاويت رحمه الله، أصله من قبيلة بني ودراس بين طنجة وتطوان،هو صالح العلماء، وناسك الفقهاء، عُرف بالورع والتقوى، وقهر النفس والهوى، مع سمت ووقار، وخشوع وانكسار، من بيت أصيل وعريق، في الاشتغال بالعلم وسلوك

(5) انظر: خير الدين الزركلي ، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002، (6/ 62). عبد السلام ابن سودة، إتحاف المطالع، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، 2/ 625، ومعلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، 1989، (7/ 2251-2252).

(6)انظر:الرابطة المحمدية للعلماء،ابن تاويت الطنجي، تاريخ النشر : 14-05-2008.

الطريق."[1] وكان إخوة الفقيه العلامة مثله من أهل القرآن، فوقفوا إلى جانبه في ساحات الجهاد ضد الإسبان طيلة اثنتي عشرة سنة، فاستشهد شقيقه أحمد، ثم شقيقه الأصغر عمر مجاهدين، وظل أخوه الثالث يجاهد الإسبان حتى بعد انتهاء حرب الريف، فلجأ إلى بني مسارة، وهناك أسلمه الفرنسيون للإسبان[2].

ومن صلب هذه الأسرة الشريفة وفي ظلالها وُلد الأستاذ العلاّمة محمد بن محمد بن تاويت الطنجي سنة 1918م من تَوَيْتْشْ من قبيلة وَادرَاس التي تقع بين مدينة تطوان وطنجة. هذه المنطقة التي تنفتح أمام الجبال الواقعة في الريف المغربي تنطوي على تاريخ فريد منذ العهد النوميدي وإلى الاحتلال الإسباني ؛رسّخ في ذات أبناء "وادراس" الانتماء العميق للمكان وقداسة التاريخ ورمزية الأسطورة التي تُحكى عن الأسلاف.

ولأن الانتماء للدين لدى هذه الأسرة أكثر من أي انتماء آخر ؛فقد بدأ الطنجي دراسته بحفظ كتاب الله والمتون العلمية، وتفقه على بعض مشايخ بلدته في مسجد **"تويتش"**. وهذا النزوع منذ الصغر إلى هذا النمط من التكوين من خصائص القبائل في المغرب العربي عموما مما جعل بعض المستشرقين المشتغلين بعلم الإناسة يجعلونه كمكوَّن فطري في الذات المغاربية؛ تقول **"فاني كولونا"**:(في الواقع إن أولئك الذين يعتقدون بأن الدين يلعب دورا أساسيا في بلدان المغرب العربي ،لا يعتقدون في غالبيتهم بأن الأمر هنا يتعلق بدين كوني مركّب يمتلك وجهة نظر توحيدية كما هو الحال في الدين الخاص بالغرب؛ولكنهم على الأصح ينظرون إليه باعتباره دينا فطريا)[3].

(1) انظر: العلامة الأديب محمد بن عبد الصمد كنون الحسني، مواكب النصر وكواكب العصر، ـو أعمال اليومين الدراسيين الذين نظمتهما جمعية مكتبة عبد الله كنون ومجلة مواسم بالمدرسة العليا للترجمة في طنجة عن شخصية وتراث الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي نجل فقيهنا العلامة رحمهما الله، بتاريخ 16 ـ 17 ماي 1997.

(2)المرجع نفسه.

(1) فاني كولونا، آيات الصمود: الثوابت والمتغيرات الدينية في الجزائر المعاصرة،ترجمة لطفي فرج، دار العالم الثالث،القاهرة،ط1، 2003، ص38.

إن البحث المغاربي عموما في عصرنا يفتقد إلى دراسات انثروبولوجية جادة تهتم بالمكونات الدينية والمحلية والريفية للمغاربي؛ولذلك الكثير من غير المغاربيين عرب وغيرهم؛لا يفهمون النزعة المحافظة جدا والمقاومة الشرسة ضد المعتدي من جانب،والتسامح والقدرة على الانفتاح والاندماج من جانب آخر. إن القرآن و التعليم الديني الأصلي وأخذ التربية عن المشايخ في الصغر تعد نقطة ارتكاز مهمة لبناء شخصية قوية في منطقة قبائل الريف المغربي؛لذلك يسارع الأولياء بإدخال أبنائهم إلى الكتاتيب في سن مبكرة جدا (حوالي ثلاث سنوات) لغرس الجذور بدل فقدانها في حال الرحلة والترحال أو أي طارئ كالاستعمار مثلا؛ إنه بناء لتصور الطفل للعالم وللوجود والناس من حوله؛ وهو تصور يبقى راسخا وشديد الصلابة في ذهن الناشئة كصلابة الصخر. وقد زاد طارئ الاستعمار هذه الصلابة إذ كان الطنجي الطفل معاصرا للحملة الإسبانية على الناحية الجبلية منطلقة من تطوان المحتلة آنذاك،وقد قامت حركة مقاومة شديدة بالقبائل لصد العدوان، وقد تشتّتت عائلة ابن تاويت الكبيرة ؛و خاصة شريفها سيدي محمد الذي أشرنا إليه سابقا؛وانتهى بهم المقام في مناطق الريف[1].

ولقد استمر تكوين الطنجي في مرحلة الشباب بعد التحاقه بمركز من مراكز الحضارة الإسلامية في المغرب؛حيث انضم إلى جامع القرويين بفاس، وتلقى عن أبرز مشايخ فاس والمغرب؛فتتلمذ على الشيخ عباس المكناسي، والفقيه أقصبي، وعبد العزيز بن الخياط وغيرهم، وفي خزانة القرويين تبدأ قصته مع البحث والتنقيب، إذ وجد ضالته هناك حيث قام بالبحث والاطلاع ونسخ الكتب النادرة[2].

لقد مرّ الكثير من أعلام المغرب على جامع القرويين؛إذ كانت الفرصة في النجاح والنبوغ كبيرة؛لتاريخ القرويين بشيوحه ومكتباته العامرة من جهة،ومن جهة أخرى رغبة الكثير من الأهالي

(2)انظر : العلامة الأديب محمد بن عبد الصمد كنون الحسني ، المرجع السابق.

(1) انظر: خير الدين الزركلي ، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002، (6/ 62). عبد السلام ابن سودة، إتحاف المطالع، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، 2/ 625.

في الحظوة السلطانية التي تمر حتما عبر الدراسة فيه؛حيث تولى الكثير من المتخرجين منه القضاء والولايات وإدارة شؤون التعليم.

إلاّ أن الطنجي لم يضع نصب عينيه إلا هدفا واحدا وهو الاغتراف من العلوم والنبوغ فيها. وقد ترك قطاع التعليم والتحق بالقاهرة (التي تحدّث عنها الرحالة والمؤرخون وخاصة ابن خلدون والذي ستكون كتبه جليسا نديما للطنجي)،وقد كان في أعماقه حنين شديد لغابر التراث و مغاوير أحداث الزمان؛لذلك اختار لتخصصه دراسة "التاريخ"؛لعل في نزوعه هذا رغبة ملحة في دراسة فروع عدة ترتبط بالتاريخ ارتباطا عضويا؛كالشريعة واللغة وفن التحقيق والاستشراق وتاريخ اللغات ...الخ.

وقد كان له ذلك؛فقد تمكن من علوم عدة ومن لغات شتى كالتركية التي سوف ينال بها حظوة عظمى،والإسبانية التي مكنته من فهم التجاور الحضاري التاريخي بين المسلمين والإسبان. ولذلك فقد انتدب لحضور مؤتمر للمستشرقين بلندن سنة 1945 رغم حداثة سنه[1]. كما أنه من المساهمين الأوائل في تأسيس معهد المخطوطات العربية التابع للجامعة العربية بالقاهرة سنة 1946، وكان من أبرز المحقّقين فيه ، وهناك امتلك ناصية التحقيق الصارم الذي لا يقابل إلا على الأصول وبنسخ متعدّدة،لتوخي نقل الحقيقة كاملة،ولذلك نراه يختلف مع المحقق المصري الكبير "مصطفى فؤاد عبد الباقي" في شكل كلمة يؤدي تغيّر نطقها إلى تغيّر معناها؛وهي كلمة "روينا"،جاء في مقال "جولة في تاريخ معهد المخطوطات العربية:الوثائق والمخطوطات":(وشارك في نشاط المعهد،عالم مغربي محقق هومحمد بن تاويت الطنجي،**وهو أول من فهرس محتويات المعهد من المخطوطات**،وقد **اختارته جامعة أنقرة أستاذًا بها لخبرته النادرة** بالتراث العربي المخطوط)[2]. وهو من المساهمين الكبار في تصوير عشرات المخطوطات وإيداعها خزانة المعهد، ويمكن أن يكون المبادر الأول لتصوير عدد من المخطوطات من مكتبات الخزانة الملكية وجامع القرويين بفاس والخزانة العامة بالرباط، وكذا من مكتبة أيا صوفيا بتركيا.

(1) انظر: المصادر نفسها.

(2)خالد عزب، ذاكرة الأمة في مخزن المستقبل،مركز الدراسات الإسلامية والمخطوطات،**www.islamonline.net**.

وأرى أنه يصدق فيه ماقيل في ابن عمه ابن تاويت التطواني :(إن ما يعانيه الأستاذ عناءً في قراءة المخطوطات لا يقوى عليه الأشداء من معاصرينا، ويشهد الله أنني ليضيق صدري حينما يريني صفحة من صفحات مخطوطه، وهو مكب عليه في صبر، مركز عليه بصره) [1]. وأيضا:(كان على المحقق أن يكون على علم بالفقه والحديث وبالميقات وأحكام النجوم وبالطب والفلسفات القديمة والأصول وعلوم الحديث، بله الدراسات اللغوية من نحو وتصريف وبلاغة وعروض وقوافي وقراءات واصطلاحاتها وما إلى هذا)[2].

بل إن تحقيق ابن تاويت كان بمعرفة و متابعة أعلام كبار في مصر ـ في الأدب والتاريخ والتحقيق؛كطه حسين وأحمد أمين وأمين الخولي،وهو ما يدل على احتكاكه بهم بما يدعم فرضية التأثير والتأثّر؛ يقول الطنجي في مقدمة تحقيقه لرحلة ابن خلدون:(وما أحب أن أنهي هذه الكلمة دون أن أعترف بالجميل لأشخاص كان لهم الفضل الكبير في ظهور هذا الكتاب: معالي الدكتور طه حسين باشا[3]؛حيث شمل عملي في ابن خلدون بعطفه وتشجيعه،وكان لمعاليه في هذا الكتاب موقف كريم لن أنساه. والأستاذ الجليل أحمد بك أمين الذي كان هذا الكتاب موضع رعايته منذ بدء عملي فيه ،ولقد تكرّم بتقرير طبع هذا الكتاب في لجنة التأليف على نفقتها)[4].

إن هذا التكوين الفذ في سن مبكرة ؛ساهم في سعة أفق الطنجي وتنوع مصادره وشمول رؤيته للتراث العربي والإسلامي،ثم تَوسع وتدعّم وتقدّم خطوات لما استقر بأنقرة أستاذا؛وقد اختارته جامعتها لتضلعه وخبرته الكبيرة في التراث والمخطوطات كما أشرنا سابقا. ولعل شخصيته الموسوعية وتحريه الدقة والرجوع إلى الأصول؛هي العوامل التي دفعته إلى إتقان عدد من اللغات غير

(3) أفلاي زاهية، جهود العلامة محمد ابن تاويت التطواني في خدمة التراث، منتديات أهل الحديث في تطوان،**www.tetouanhadit.com**

(1)المرجع نفسه.

(2) تولى طه حسين في هذه الفترة رئاسة معهد المخطوطات العربية التابع للجامعة العربية، في سنوات الخمسينيات من القرن الماضي.

(3) ابن تاويت ، مقدمة تحقيق كتاب "رحلة ابن خلدون" لعبد الرحمن ابن خلدون الإشبيلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004، ص 26.

العربية؛كان في مقدمتها اللغة التركية،وسنقف على تأثير هذه اللغة على شخصيته في المبحث الموالي.إضافة إلى الفارسية والانجليزية،مع امتلاكه ناصية الإسبانية من الصغر؛ لأنها كانت تدرّس في المناهج المغربية منذ المرحلة الأولى التعليمية،وكذا إتقانه للأمازيغية كلغة شفاهية لأنها لغة الأجداد.

هذه الموسوعية في التكوين قابلها جانب عملي ميداني؛تمثل في الرحلة والارتحال، وقد حذا به إلى الاعتكاف على أعمال ابن خلدون؛مبتدءا برحلته ومقدمته و كتاب شفاء السائل لتهذيب المسائل ،ومنتهيا بالوقوف على أغوار أفكاره[1]. كما عنى بمؤلفات التوحيدي وحقّق بعضها؛كمثالب الوزيرين،والهوامل والشوامل التي كانت عبارة عن حوار دائر بين التوحيدي وشيخه مسكويه[2]. وقد كانت جل تحقيقاته في فترة الإقامة بتركيا ؛وسنبحث سر ذلك ونُسائل البيئة التي مكّنت هذا العلَم الفذ من هذه التحقيقات الفريدة التي أشاد بها الأجانب ومنهم الفرنسيون ؛كدراسة عبد السلام شدادي لليونيسكو بالانجليزية[3]؛ودراسات كثيرة بالتركية[4]، ودراسة Gabriel Martinnez-Gros.بعنوان:les conquetes arabes (650-750)[5].

لقد وعى الطنجي ما لأدب الرحلات من دور حيوي في نقل صورة المسلم ودار الإسلام للآخر؛فاختار نماذج تقوم فلسفتها وتجربتها وكتاباتها على المشترك الإنساني وتأثير الإسلام فيه بالصفة الإيجابية. لقد حاول الاستعمار الغربي طمس التاريخ الإسلامي عبر تدمير ذاكرته،إلا أن امتداد رقعة وجغرافية العالم الإسلامي وترجمة عديد المخطوطات إلى لغات الإسلام الرئيسية؛كالتركية والفارسية والأوردية،ساهم في الإبقاء على الذاكرة. لذا كان تكوين الطنجي في عمقه ينحو منحى الآخر في كل العالم؛مصحّحا له الصورة النمطية والخرافية عن المسلمين

(1) انظر:ابن شريفة(محمد) ،ابن تاويت الطنجي محققا لآثار ابن خلدون، أعمال ندوة ابن خلدون 14-17 فيفري 1979، ص 163-172. منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط.

(2)ستأتي الإشارة إلى الكتاب بالتفصيل في ص 11 .

(3)انظر:Abdesselam Cheddadi,ibn khaldoun ;ibe-unisco.org

(4)انظر:/Rujuk butu At-t'arif bi; ibn khaldoun warihlatihi;syarqan wa Gharban; agama.html .

(5) انظر:Gabriel Martinez-Gros; les conquetes arabes(650- 750) cehd.sga.defensse.gouv.fr

وبلدانهم،لقناعة مفادها أن الثقافة الأصيلة هي الأليق بالبقاء والارتقاء وليس الثقافات الهجينة؛ كما يعبر عن ذلك الكاتب العراقي عبد الله إبراهيم:(إن الثقافات تتمازج ،وتنشأ هويات ثقافية جديدة،وتتشكّل مجتمعات حقيقية أو متخيّلة،ثم تنحل. و مع ذلك فإن الثقافات الأصلية ما زالت هي التي تحدّد معالم الثقافات الجديدة،ما انفكّت تلك الثقافات تستأثر بالأهمية،ولم نصل بعد إلى الثقافات العالمية ،واختفاء جانب من الثقافات المحلية لا يعني تلاشيها كما يذهب الكثيرون إلى ذلك، فالثقافة هي أكثر من مجرّد ما يظهر للعيان،إنها أعمق بذلك بكثير ،فالثقافات تتمازج لكنها لا تتلاشى)[1].

ولعلّ التمثيل البيئي والثقافي بالمعنى التأريخي الواسع لابن خلدون ثم للطنجي في منهج التدوين والتحقيق؛ فيه تجاوزٌ للإقليمية المحدودة، وفيه استثمار واضح للمعلومات التاريخية في مقاربة الحقيقة، واقتران الظواهر الثقافية فيها بالعناصر الديموغرافية والبيئية،وبالتحولات التاريخية والاجتماعية؛وذلك منهج تاريخي يقرأ الحدث ولا يكتفي بمجرّد نقله؛يقول الطنجي في مقدمة تحقيقه لرحلة ابن خلدون:(فما الذي يجب أن نفعل إذا ما زلّت بالكاتب القدم؛فأخطأ – في كتابته- جادةَ متنِ اللغة أو اشتقاقها،أو أخطأ في الإعراب؟أنملك أن نعدّل في النص،ونثبته على حسب ما تقرّره القواعد؟وأين الحصانة التي تتمتع بها نصوص المؤلّفين حينذاك؟ والجواب عندي:نعم نملك ذلك ...ولنا السند المتين فيما قرّره المحدّثون - منذ القديم البعيد- في الحديث تثبت روايته عندهم،وفيها مخالفة لوضع من أوضاع اللغة.والمؤلّفون أنفسهم أذنوا في هذا النوع من التصرّف،ولم يعدّوه افتياتا على نصوصهم)[2].

وهكذا شبّ واشتد واشتهر الطنجي؛ نشأة فطرية مدعّمة بإرادة قوية نادرة للتعلّم والتكوين والتفوق،ثم رحلة وارتحال،واعتكاف مستميت في التحقيق والبحث والمراجعة؛بوّأه كل ذلك الاحترام والتقدير والتأثير.

(25)عبد الله إبراهيم، المركزية الإسلامية: صورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى، ص 20.

(26) ابن تاويت،مقدمة تحقيق رحلة ابن خلدون، مرجع سابق، ص22.

بقي لنا أن نختم بشهادة ابن عم الطنجي ورديفه في الاسم؛ العلاّمة والأديب الكبير محمد ابن تاويت التطواني الذي كان زميلا له في الوطن والغربة؛قال فيه:(...فهو رجل قد قدّر الناس قدره، **وأحبّه علماء الأتراك واحترموه في وزاراتهم وجامعاتهم...**)[1].

المبحث الثاني: المؤثّرات والتقاطعات الفكرية والعلمية واللغوية في شخصية الطنجي:

يمكن التأكيد بداية على أن دراسة السير الذاتية في العالم العربي خصوصا لا زالت تخضع للمنهج الكلاسيكي المعتمد على سرد الأحداث والتفاصيل المهمة،دون الاهتمام بهوامشها والتي قد تكون عند التأمل هي المؤثر في مسار هذه الأحداث. وقد ظهر في السنوات الأخيرة منهج جديد في كتابة السير يقوم على قراءة الحدث ويتجاوز لغة الأرقام و المعلومات والتفاصيل الشخصية،وأطلق على هذا النوع من السير؛سير غير ذاتية أوغير موضوعية،وكان من رواده المؤرخ والفيلسوف المصري الكبير الدكتور عبد الوهاب المسيري[2].

وتقع سيرة عالمنا ومحققنا الفذ ابن تاويت ضمن هذا النوع،فهو لم يكتب سيرة لحياته،ولم يتوفر له الوقت للإكثار من تفاصيل مشروعه،رغم تنوع تحقيقاته ومقالاته بين علوم عدة من علوم التراث. لكننا و بمنهج استنطاقي قد نستطيع تدوين المسوّدات في تفاصيل مشروعه،ومكونه الفكري والثقافي، هذا الاستنطاق يقوم على المقارنة والمقابلة بين الشخصية الصامتة التي يمثلها عادة مؤلف الكتاب المحقَّق،وبين الشخصية الحيّة التي تعيش لحظات هذا التحقيق وتتفاعل معه وتنقله بتعليقات واستدراكات وشروح.

وهنا ولنستخرجَ ما في دفاتر الطنجي؛لا بد من الوقوف مع علَمين جليلين اهتم بهما وبمؤلفاتهما،وكذا نزوعه الموسوعي لعلوم شتى وباصطفاء شديد،وولعه باللغة والبيئة التركية وسر

(27) انظر في ترجمة الطنجي: الأعلام للزركلي، مرجع سابق،(6/ 62). إتحاف المطالع، مرجع سابق، (2/ 625).معلمة المغرب (7/ 2251-2252).

(1) انظر: مذكرات عبد الوهاب المسيري:رحلتي الفكرية في الجذور والبذور والثمار،دار الشروق،القاهرة،2001.

ذلك؛وهل تصح مقارنته بالمحقق العلامة زاهد الكوثري كنموذج لمحقق تركي انغرست المؤثرات البيئية في شخصيته؛فكان ذلك الإنتاج الغزير الذي عرفناه.

لقد تركت عزلة ابن خلدون الشهيرة آثارها على الطنجي؛إذ جاء في مقال بعنوان:"ابن خلدون بين السياسي والثقافي:استشهاد الصَّدِيق وقرار العزلة":(ترك الحادث الأليم صدمة في حياة ابن خلدون قرر على إثرها الانقطاع عن العالم .فالصداقة المقموعة انفجرت عزلة احتجاجاً على قتل (استشهاد) الوزير المثقف .فابن خلدون وابن الخطيب ينتميان إلى صنف الأذكياء. وصفة الذكي أنه يُخضِع خلافاته الشخصية ويضعها في إطار موضوعي يحافظ على مسافة تحترم الآخر ولا يكسر العلاقة بشكل نهائي)[1].ولذلك وبعد استشهاد الصديق المثقف والوزير المؤرخ حسم ابن خلدون قراره وانتقل من حياة القلق والاضطراب إلى طلب الهدوء والسكينة والانقطاع عن العالم والانزواء في قلعة ابن سلاّمة في العام نفسه (776 هـ / 1374)م[2].

لا نستطيع إسقاط هذا الحدث على العلامة ابن تاويت،لكن بمقدورنا أن نؤكد أن عودة الطنجي من الرباط إلى أنقرة هي طلب للهدوء والسكينة والانقطاع عن العالم من أجل مشروعه الأكبر المتعلق بتعريف الخلف بتراث المتقدمين وإخراج الكنوز الغائرة في مكتبات العالم من المخطوطات الإسلامية إلى الوجود،بدل الصراع على المناصب،الذي ذاق في معمعانه ابن عمه الأمرين وانتهى به الأمر كذلك إلى الانزواء إلى عالم الكتابة[3]. يقول مقدم كتاب "رحلة ابن خلدون" الذي حققه الطنجي:(ولا يختلف ابن تاويت في إيثاره الهجرة إلى المشرق على البقاء في المغرب عن ابن خلدون نفسه الذي اكتشف أن الإقامة بالمغرب باتت مستحيلة بسبب القلاقل السياسية ،وفي عام 784م-1382هـ تعلّل بالحج وغادر المغرب إلى غير رجعة.وإذا كان ابن خلدون قد صرف السنوات

(1) وليد نويهض ،ابن خلدون بين السياسي والثقافي:استشهاد الصديق وقرار العزلة، الوسط البحرينية - العدد 3045 - الجمعة 07 يناير 2011م الموافق 01 صفر 1432هـ .

(2)المرجع نفسه.

(3)انظر: أفلاي زاهية، جهود العلامة محمد ابن تاويت التطواني في خدمة التراث، منتديات أهل الحديث في تطوان،**www.tetouanhadit.com**

الأخيرة من عمره في القاهرة متقلّبا في المناصب الفقهية والسياسية،قبل أن ينقطع نهائيا إلى الفيوم ويُتوفى هناك سنة 808 م- 1382هـ)[1].

لقد اكتشفنا منذ وقت مبكر العلاقة الوثيقة التي تجمع الطنجي بابن خلدون؛وأشرنا إلى المؤثرات الدينية والاجتماعية والإنسانية والتاريخية،ويمكن رصد التقاطع الفكري للطنجي مع هذا العلَم الكبير فيما يلي:

1 - الرؤية الشاملة: والمقصود بها تلك النظرة المتكاملة للكون والحياة، نظرة استفادها من الاطلاع الواسع على التراث الإنساني وبلغات متعددة،مما أضفى لمسات جمالية مميّزة على شخصيته،وإذا أخذنا اعتباطيا تحقيقه لكتاب رحلة ابن خلدون و تتبعنا تعاليقه؛بَهَرَك ما رأيتَ وقرأتَ؛ثقافة متنوعة في الجغرافيا البشرية والبلدانية وباللغات الأم، إلمام تام بأحداث التاريخ القديم والمعاصر،وامتلاك لناصية اللغة (العربية) في أجمل أساليبها،مع تفقه وقدرة على التفلسف؛وقد رأينا فيما سبق تبريره لتصحيح ما غلط فيه المؤلف قياسا على مسألة في رواية الحديث في علم المصطلح، والكتاب الذي حققه للقاضي عياض:"ترتيب المدارك"والذي يعد ذاكرة الغرب الإسلامي نظرا لعدد الأعلام المغاربة والأندلسيين الوارد فيه، وبتحقيق وتعليق فريدين من الطنجي ،وهو أول كتاب استوعب تراجم أعلام مذهب مالك وقصة انتشاره في البلدان؛ تقع مطبوعته المحققة في ثمانية مجلدات، رتّبه على الطبقات والبلدان، يَذكرُ في كل طبقة أعلامَ كل إقليم مميزة على حدة.

هذه المرآة التي ينظر فيها ومن خلالها الطنجي تركت آثارها في فكره،حيث امتلك القدرة على تحليل الحياة و فهمها تماما كابن خلدون،ولو قدّر لنا الاطلاع على مقالات الطنجي بالتركية لصنفنا في ذلك التصانيف.

ولعله مما دعم هذه الرؤية الشاملة، هذا النسيج اللغوي المتنوّع الذي يمتلكه؛ مما أكسبه خاصية روحية دعّمت ما نشّئ عليه في طريقته الأصل.

(4) علي بيضون،مقدمة كتاب رحلة ابن خلدون، مرجع سابق.

فلغته الشفاهية الأمازيغية؛ هي خزان من الحكايات والقصص الشعبي والأسطوري عن حياة أبناء القبائل في الريف المغربي وفي جبال جرجرة الجزائرية وغيرها من أماكن تواجد القبائل الأمازيغية. وإلى اليوم تستمر الدراسات في تلك النبرات الموسيقية المميّزة التي تمتلكها هذه اللغة نتيجة التحامها بالموروث واتصالها بعنفوان الأمازيغي.

ثم في جمالية اللغة العربية وعبقرية شعرها و الأصوات العميقة التي تميز بنيتها الصوتية وتاريخها في الشعر والنثر والحكم والأمثال؛ التي أبان صاحبنا عن ملكة فيها من خلال تحقيقاته، ليترك أشد الأثر في شمولية رؤيته.

أما إذا عرّجنا على اللغة التركية؛لغة المستقر، فإن إفادته منها لا تحصر، فقد كانت بالنسبة إليه لغة جمالية وشعورية عميقة،إضافة إلى تقنيتها وبنائها الذي يمتلك القدرة على الإيغال والتأثير في الطبقات المختلفة؛على عكس الكثير من اللغات التي تنشطر بين النخبة والجمهور.ولذلك رأينا في تاريخ الدولة العثمانية أنها مع سلطتها الشرعية المستمدة من الخلافة الدينية فإنها لم تفرض على الشعوب العربية أو غيرها اللغة التركية؛على عكس ما يفعله المستعمرون من القضاء على اللغة الأم وفرض لغتهم؛وهذا ما فعله الاستعمار الفرنسي- بالجزائريين. فإنه ورغم أدبية اللغة التركية كونها لغة السلطان أو الخليفة؛فإن الجمهور العريض إلى اليوم قد حفظ منها الكثير لوظيفيتها وتقنيتها؛وهو ما سهل للطنجي قدرة تطويع التراث وهضمه وتحقيقه، يقول نادر سراج في مقال له بعنوان:"الحضور العثماني التركي في اللغة العربية:تجدد جاذبية أم تواصل ثقافي ووظيفي":(ثمة ظاهرة لغوية تستوقف المتتبّع لمجريات الحياة السياسية العربية،فالكم المصطلحي ذو الجذور العثمانية-التركية الذي يلوّن مفاصل الكلام السياسي ؛إن بالألقاب المسبغة على العاملين فيه أو بالرتب العسكرية ،أو بتسمية الوظائف الإدارية ،أو بالتعليقات والانتقادات التي يتبادلها السياسيون وينقلها عنهم أو يروّجها الإعلاميون ؛أمر يستحق الدراسة...)[1] (يتبيّن لنا مما سبق أن اللغة العثمانية كانت

(1) نادر سراج، الحضور العثماني التركي في اللغة العربية: تجدد جاذبية أم تواصل ثقافي ووظيفي، مجلة التسامح، مسقط- سلطنة عمان، العدد12- 2005، ص127.

لغة الحاكمين،لغة السلطة؛لذا تأثرت بها كافة الشعوب المحكومة؛بمن فيهم العرب.فاقتبسوا منها ماهو مفيد لاحتياجاتهم التواصلية اليومية مع بعضهم بعضا من جهة،ومع الحكام من جهة أخرى.والملاحظ أن بعضا من هذه المقترضات ترسّخ في لسانهم الفصيخ وفي محكياتهم العربية المعاصرة لأسباب وظيفية محضة،وهذا هو حال المبدأ اللساني الخلدوني)[1].

ولا شك أن اللغة التركية بالنسبة للطنجي لم تكن لغة تواصل ووظيفة فقط،بل كانت لغة جاذبية وجمال وشعور عميق، لما لمخزونها الإيقاعي والصوتي من وقع على النفوس،وكذا النغمة ذات الإيحاءات الخيالية التي تهز اللب وتستثير المشاعر وتحلّق بالعقول. لقد وعى الطنجي كل ذلك فضمه إلى عظمة اللغة العربية ومزجه بها وحوّله إلى إنتاج كتابي نال به احترام أصحاب اللغة نفسها؛فبجّلوه وقدّروه كما وصف ابن عمه من قبل.

وشمولية الرؤية المؤسّسة على اللسان تكتمل بوقوفنا مع تبحر الطنجي في لغة "الماتادور"،إذ في حياضها سبح في تاريخ مجيد لأسلافه المسلمين،سطّروه في الأندلس،فمما لا شك فيه أن للإسبانية وقعا حزينا، هو استرجاع داخلي تاريخي لجمالية الحضارة الإسلامية التي شيّدت هناك،والتي أهدت أوربا ما به اجتازت ظلمات العصر الوسيط ، فنبرة هذه اللغة هي تصوير لملحمة البناء ثم تراجيديا المأساة في ضياع هذا الفردوس من أيدي المسلمين،رغم إيمان الطنجي بالتكامل الحضاري وبوحدة الإنسانية في مبادئها العامة. يقول روبرت ديفز في تقديمه لكتاب "الصوفيون" لإدريس شاه":(بعد الغزو[2] الذي قام به العرب- المسلمون لكل من إسبانيا وصقلية في القرن الثامن؛صارتا مركزين من مراكز الحضارة الإسلامية،يشتهران بالالتزام الديني.ومع ذلك فالعلماء الذين تدفّقوا من الشمال على تلك المراكز طلبا للأعمال العربية بهدف ترجمتها إلى اللاتينية لم يبحثوا عن المذاهب الإسلامية المتزمتة،بل عن الآداب الصوفية وأحيانا عن الرسائل العلمية وأغاني "التروبادور"،والكلمة لا تتّصل بالفعل الإسباني "تروبار" (trobar) (أي:عثر على،وجد) ؛لكنه مشتق من الجذر

(2)المرجع نفسه،ص137.

(1)هذا تعبير المستشرقين عن الفتوحات الإسلامية.

العربي "طرب" ؛استقر الآن بشكل حاسم أنها ؛أي تلك الأغاني إنما ترجع إلى أصول إسبانية ؛أي عربية-إسلامية)[1].

إننا نقارب بمنهج استقرائي استنباطي، ولذلك فنستطيع التأكيد على أن الجغرافيا في مجاورة قرية الطنجي التي ولد فيها لإسبانيا،وتعلم اللغة الإسبانية المفعمة بالروحانيات الإسلامية، لهي تجربة عميقة تركت آثارها في المسحة الحزينة التي طبعت شخصية الطنجي والتي تجلّى لنا بعضٌ منها في مصاحبته لابن خلدون والتوحيدي؛ وما لف حياتهما؛من خيبة التوحيدي في معظم الناس؛إلى عزلة ابن خلدون إثر فاجعة ابن الخطيب.

2- الموسوعية:

إن إطلالة سريعة على المكتبة العربية والتركية، لتعطينا صورة شاخصة بيّنة عن الثقافة الواسعة التي يحملها الطنجي والتي مكّنته من تأطير عشرات المشاريع العلمية والثقافية والفكرية، نذكر هنا على شرفه المحاولة الرائدة في جغرافية الآفاق:**"المشروع الجغرافي العربي ارتياد الآفاق جسر بين المشرق والمغرب وبين العرب والعالم"** ؛التي يقودها الأديب والمحقق السوري الكبير نوري الجراح انطلاقا من مدينة أبوظبي للوعي الاستثنائي والإيمان العميق بغنى الثقافة الإسلامية وجدارتها في مخاطبة الذات ومخاطبة الآخر، وقد كان للطنجي في اهتمامه بالأدب الجغرافي من خلال تحقيقه رحلة ابن خلدون، أثر في إدراك ما للمغرب الإسلامي من أهمية خاصة تنهض على المكانة المميزة التي يمثلها الموقع الجغرافي، سواء من حيث قربه من أوربا، أو ريادة أبنائه في إنتاج نصوص الرحلة، فضلا عما استجد من مغامرة الباحثين والأكاديميين المغاربة في إنتاج الخطابات المتعلّقة بهذا اللون الأدبي.

والموسوعية التي طبعت شخصية الطنجي مكّنته من التحرر من سلطة بعض العلوم التراثية التي ظَلّ الكثيرون سجناءَ لها، حيث عمد إلى مختلف العلوم النقلية والعقلية واللغوية؛ محققا ومعلقا

(2)روبرت ديفز، مقدمة كتاب "الصوفيون"،لإدريس شاه، ترجمه إلى العربية بيومي قنديل،منشورات المجلس الأعلى للثقافة،القاهرة،ط1، 2005،ص31.

ومدققا وموجّها؛ وهو ما أهله لتدريس الثقافة الإسلامية في جامعة أنقرة،وما تعنيه هذه المادة في مشروع تقويم الشخصية المسلمة والنهوض بها.

3- الشخصية النقدية:

لقد كان للطنجي من شخصية ابن خلدون؛ الكثير من السمات والخصائص العلمية والفكرية، ولعل الموضوعية التي يُراد بها؛ البعد عن الخرافة والشعوذة و المثالية في التحليل والتنظير؛ كانت من أبرز هذه السمات،إذ آمن بالمنطق الخلدوني في النظرة إلى التاريخ كما تحدث عن ذلك في مقدمة تحقيقه للرحلة[1]،وآمن بمدنية الاجتماع البشري، الذي ينشأ في حضن الجماعة ويؤثر بقوتها . وآمن بالدولة الفاضلة العادلة؛ويقصد بها الدولة المستندة إلى قوانين الاجتماع الإنساني والعمران البشري،في إطار المبادئ والقيم الإسلامية.

والأكيد أن ابن تاويت لم يغب عن ذهنه تلك الدول التي لم يأخذ فيها دور الفكر والروية درجة الدور العلمي في تنظيم شؤون المجتمع؛ما ولّد حالة من عدم التوازن،ومقابلة ضدية بين الحاكم والمحكوم، وبين الغني والفقير، والذكر والأنثى، مما عرّض ويعرّض السلام الأهلي والاجتماعي للخطر والقلاقل. لذلك فالنموذج هو الفكر الإسلامي الاجتماعي المستند إلى سنن الله في الآفاق والحياة والأنفس و تتابع الزمان، وذلك يُعد نظرية خلدونية متميزة لا يزال العالم إلى اليوم يغترف منها[2].

4- المنهج المعرفي في دراسة التراث:

والمقصود بذلك أن المنهج الصارم الذي أسّس له الطنجي في علمية التحقيق؛والذي يقوم أساسا على فهم المؤلّف قبل تحقيق الكتاب،يُعتبر فتحا في عالم التحقيق،إذ كانت العلاقة غالبا بين المحقق والكتاب علاقة تقنية جافة،أدّت إلى أخطاء جسيمة في المقابلة بين النسخ عند الفوارق،وكذا في فهم الاصطلاحات الواردة في متن التحقيق.

(1)انظر مقدمة رحلة ابن خلدون .

(1)انظر في هذا الخصوص: أبو يعرب المرزوقي،الاجتماع النظري الخلدوني والتاريخ العربي المعاصر، الدار العربية للكتاب،طرابلس-ليبيا،1983.

واليوم يؤخذ منهج الطنجي في التحقيق والدراسة المعرفية للتراث كنموذج علمي يتمايز من خلاله التراث الحي،وتقعد القواعد المنهجية الصارمة في نقل المعلومة وتحويلها وقراءتها.

5- الموضوعية والواقعية:

لقد أخذ ابن تاويت في حياته بما قرّره ابن خلدون[1] في أن الإنسانية لها الشراكة الكاملة في هذا العالم بناء على حديث النبي صلى الله عليه وسلّم :(إنما بعثتُ لأتمّم مكارم الأخلاق)[2]. فحفظ الكليات الخمس جاء لمصلحة الإنسانية جمعاء، ومبادئ الحرية والمساواة وحقوق الإنسان وعدم التعصب في المصالح الخاصة والعامة لأيّ عرق أو لون أو قبيلة أو دين؛ في مصلحتها جميعا أيضا، والتشريعات الكبرى في السّلم والحرب لصالح الإنسان؛ وتلك موضوعية ارتفع فيها ابن تاويت عن التعصب لقومية أو طائفة أو حزب، رغم نزعته المحافظة.

كما أن الدين في وضعه الإلهي كما يعرّف عادة جاء لصالح الإنسان في الآل والمآل؛ فاستقصد الدافع البيولوجي فيه، وعقله وفكره، وحقيقته واجتماعيته، فخرج عن مفهوم المخلوق الآثم الذي ساد في الفكر المسيحي الوسيط. لذا فقد ابتكر ابن خلدون مفاهيم جديدة في إطار الاجتماع الإنساني بناها على ما سبق ذكره، وعلى مشاهدات الواقع وعلى بؤس بعض المجتمعات نتيجة تفكير متقوقع أو أسطوري بعيد عن روح الرسالة العالمية السامية. هذا المفهوم يتمثّل في أن أصل الاجتماع البشري يقوم على المواطنة في إطار ما عرف عن ابن خلدون في الواقعية الاجتماعية التاريخية؛ فعندما يتكلّم ابن خلدون عن الأمة والإنسانية والأمم؛ فإنه يتكلم كمؤرخ اجتماعي ويبني أحكامه على ما يعرف من الواقع الاجتماعي أو السياسي[3] المبني على التجربة والمعايشة في الحل والترحال، مستبعدا ما يعرف اليوم بالعقلية الطوبوية في التنظير المتخم للمدينة الفاضلة أو الاجتماع المثالي.

(2) ابن خلدون، المقدمة ،تحقيق علي عبد الواحد وافي،طبعة لجنة البيان العربي،1962، ص882.

(3) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، رقم 273، وأحمد في المسند، رقم 8729.

(1) وليد نويهض،ابن خلدون بين السياسي والثقافي:استشهاد الصديق وقرار العزلة، الوسط البحرينية - العدد 3045 - الجمعة 07 يناير 2011م الموافق 01 صفر 1432هـ .

هذه الواقعية الخلدونية المؤسسة على مشاهدات الواقع وتجاربه؛ جسّدها ابن تاويت في حياته من خلال إيثاره لمفهوم الأمة وفق قالب خلدوني، ولذلك نراه يؤثر العزلة الخلدونية؛ لأن المعايشة و المنافسة لم يغيّرا الواقع الاجتماعي، وعليه فإن بناء مجتمع متعايش يبدأ حتما من مفهوم المواطنة الذي يؤسس بدوره لمجتمع متضامن يسمو عن الصراعات الدينية والمذهبية والطائفية ويسوده القانون، وفي هذا عدول من ابن تاويت إلى الأمة على حساب القومية الضيّقة التي كانت سائدة آنذاك.

ويعني عقد المواطنة المؤسس للدولة والمجتمع؛ الشراكة التامة في الوطن والديار؛ واستحقاق كل أفراد الأمة للحقوق والواجبات على السواء؛ في كل الشؤون الدينية والدنيوية. ولا يعني أن ابن خلدون (ومن ثم ابن تاويت) قد طرح فكرة الوطن والمواطنة بديلا عن مفهوم الأمة، ولكنه يشير إلى الواقع الذي كان يعيشه المسلمون في تعدد دولهم في عصره؛ ومن ثمة حاجتهم إلى مفهوم جديد يناسب البعد الإقليمي للدولة؛ لأن الأمة في نظره تشير إلى الوحدة الدينية الشاملة للمسلمين دون وجود الآليات التي تحقق الوحدة السياسية أرضا، وذلك يؤدي إلى تفكك عرى المجتمعات والأوطان؛ لذلك يطرح مفهوم المواطنة كبديل عن العصبية وليس بديلا للأمة[1].

أما الإنسانية التي عرفت عن التوحيدي؛فهي مكملة لمفهوم الإنسانية الذي عرضناه،لأن المجتمع الذي يعدم هذه النزعة هو مجتمع أقرب إلى الهمجية التي تحكم بخلفية قانون الغاب، بمعنى سقوط القيم الأصيلة الضامنة لكرامة الإنسان. ولقد بنى بعضهم نظرية التوحيدي في ذلك من خلال كتابه :**" مثالب الوزيرين"**. والذي هو تتمة لما بدأه التوحيدي في كتابه " الهوامل والشوامل"طُبع لأول مرة في المجمع العلمي العربي بدمشق سنة 1965م في (550) صفحة[2]. والهوامل : النياق الشاردة بلا راع، وبها سمى أبو حيان أسئلته التي بعث بها إلى مسكويه الخازن (ت 421هـ)؛خازن ابن العميد الكاتب،الوزير الذي خصه التوحيدي بمثالبه في "مثالب الوزيرين"،وقد بالغ في ذم مسكويه، في كتابه: (الإمتاع والمؤانسة).والشامل:هو المطرد وواسع الانتشار؛أي الخلق القويم

(1) انظر:ناصيف نصار،مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ،دار الطليعة،بيروت،ط5، 2003،ص110.

(2) انظر: التوحيدي، أخلاق الوزيرين، تحقيق ابن تاويت الطنجي،دار صادر، بيروت، 1992.

الشامل[1].وهنا وللدلالة على عظمة الطنجي في التحقيق نشير إلى أن المستشرق الغربي الشهير "بروكلمان" الذي دل على نفائس التراث العربي مات غير عارف بوجوده، حتى عثر محمد ابن تاويت الطنجي على نسخته الفريدة في مكتبة أياصوفيا، أثناء بعثته إلى الأستانة لتصوير الكتب القيمة ، وعلى النسخة تملُّكٌ بتاريخ 440هـ فإذا صح ذلك فهي من أنفس المخطوطات العربية وأغلاها،ولما حملها إلى مصر تولى طبعها أحمد أمين بمساعدة أحمد صقر سنة 1951م.[2].

ومن موضوعي الكتابين نأخذ فكرة مهمة عن سر احتفاء الطنجي بهما حيث دفعه موضوع القيم المستخرجة من الدين والتي شاهد التوحيدي عبر معايشته ومخالطته لمختلف الطبقات؛ إهدارَها والتفريط فيها في زمنه، فأعلن عن موتها في قلوب الخاصة الذين يتحكمون في شؤون الناس سواء في السياسة أو التجارة أو الفتوى، وخاصة مسألة المساواة واحترام العلم والثقافة باحترام أهلها، فقد عَرَضَ للتوحيدي ما لم يعرض لكثير من العلماء من قسوة العيش وتنكّر الأصدقاء، ومن أسئلته في "الهوامل والشوامل": (ما السبب في قتل الإنسان نفسه عند إخفاق يتوالى عليه) و(ما السبب في اشتياق الإنسان إلى ما مضى من عمره، حتى إنه ليحنّ حنين الإبل)، و(**لم صار الإنسان إذا صام أو صلى زائداً عن الغرض المشترك فيه، حقَّر غيره واشتط عليه، وارتفع على مجلسه ووجد الخنزوانة في نفسه، وطارت النعرة في أنفه حتى كأنه صاحب الوحي**)، و(ما الذي حرّك الزنديق على الخير وإيثار الجميل)،و(ما سبب غرور أولاد المشهورين وتعاليهم على الناس)، و(ما السر في أن الناس يستخفون من أطال ذيله وكبر عمامته)، و(لم صار العروضي رديء الشعر، والمطبوع على خلافه)، و(ما الذي سوّغ للفقهاء أن يقول بعضهم في الفرج الواحد: هو حرام، ويقول الآخر: هو حلال....وهم يزعمون أن الله قد بيّن الأحكام ونصب الأعلام وأفرد الخاص من العام، ولم يترك رطباً ولا يابساً إلا أودعه كتابه؟) أما ملكة المسائل كما يقول والذي أجاب مسكويه

(3)انظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط،طبعة مؤسسة الرسالة، ص1386،وص1319.

(4) التوحيدي،الهوامل والشوامل،المسائل: (4)و(35) و(68) و(83) و(86). بتحقيق الطنجي.

عنها بأميرالأجوبة فهي: (ما السبب في حرمان الفاضل وإدراك الناقص؟)، إلاّ أن أخطر هذه الهوامل: المسألة التي يقول فيها: (وبقي مع الناس علم مختَلَفٌ فيه، وجهلٌ اصطلح عليه)[1].

وفي عرض هذه الأسئلة الحرجة والواقعية التي رفعها التوحيدي محتجا وليس متعلّما ندرك مدى تجاوب واهتمام الطنجي بالكتابين، وهو الذي فضّل الحياة في تركيا على حساب البيئة المغاربية التي وإن بلغت درجة من التحضّر إلاّ أن العقلية القبلية والنبرة الأيديولوجية هي الطاغية في التعامل العام؛ حيث لا يزال أكثر العوام يبجّلون ما يسمونهم بالأولياء على حساب العلماء المتضلّعين، وهي حالة تشترك فيها الشعوب المغاربية عموما، تقول فاني كولونا: (مع صدور كتاب "جاك بيرك" :"التركيبات الاجتماعية في جبال الأطلس العليا لأعالي الأطلس" أمكننا الاعتقاد بأننا نشهد نوعا من إعادة تأسيس انتروبولوجيا الإسلام (دراسة تطوّر عادات ومعتقدات الإسلام) ،والحقيقة إنه بالرغم من ضخامة هذا العمل وأهميته ،إلاّ أنه لا هذا الكتاب ولا الكتب التي تلته لم تقلب أوضاع المشهد الذي عرضناه... ولنفحص الأمر عن قرب ؛إن الجزء الثالث من الكتاب بأكمله المعنون:(إبداع نظام) يتوجّه إلى الدين ،يتم في هذا الجزء وصف نظام هرمي متسلسل يبدأ من **الأولياء الصالحين التاريخيين في أعلى المراتب**، وينتهي عند المقدّس غير المجازي في أسفل التسلسل مع العديد من الفروق والنماذج)[2].

وإذا أخذنا بعين الاعتبار صداقة الطنجي لطه حسين الذي تزَعّم و أدار المعركة التاريخية في مصر بين الأزهر ودار العلوم ،أو بين المشايخ والمستنيرين، عرفنا نزوع الطنجي إلى الاستقلال الشخصي- وامتلاك العقلية المدققة المحققة التي رأى أن تركيا أفضل بلد يوائمها. ولا يعني ذلك إطلاقا استخفاف الطنجي بالدين، بل العكس فقد كان سليل أسرة عريقة في الفقه والتصوّف، كما أنه حفظ القرآن وتلقى عن مشايخ القرويين، ولكن نضع نزعته هذه في إسقاط القيم على الحياة. فمن المستبعد أن يحقق أعمال ابن خلدون والتوحيدي دون النزعة التي أشرنا إليها، ثم اصطفائه "أنقرة" مستقرا وجهوده في التربية الدينية هناك، تؤدي إلى ما سقناه. ولقد قال في ابن خلدون عند مقدمة

(1)فاني كولونا،آيات الصمود،مرجع سابق،ص38.

تحقيقه:(حينما اخترتُ "مقدمة ابن خلدون" موضوعا لدراستي وجب عليّ أن أعرف ابن خلدون مؤلّفها، وكانت معرفته عن طريق حديثه عن نفسه من أهم ألوان هذه المعرفة وأوكدها، ومن هنا قرأتُ هذا الكتاب طلبا لمعرفة ابن خلدون؛فعرفته منه على الصورة التي أراد أن يتصوّره عليها الناس)[1].

الخـاتـمة:

لقد قدّم الطنجي بسكون ووقار للحضارة الإسلامية ما لم تستطعه جحافل من رافعي الأصوات،وإن في طلبه للهدوء والسكينة والانقطاع عن العالم من أجل مشروعه الأكبر المتعلق بتعريف الخلف بتراث المتقدمين وإخراج الكنوز الغائرة في مكتبات العالم من المخطوطات الإسلامية إلى الوجود لفيه الدروس والعبر التي لا تنحصر. وقد أكّدتْ التقاطعات الفكرية المجموعة من ثقافات شتى ولغات عدة وأبنية متنوعة عن حاجة المسلم اليوم إلى الخروج من القوقعات القومية والمذهبية والسياسية من أجل مشروع حضاري ضارب في الأعماق لا يزول بزوال أصحابه،بل يبقى ذاكرة حية تقلبها الأجيال وتقرأها بين السطور المرسومة و الكنوز التي أعيدت للحياة في غفلة عن أكثر الناس وفي هدوء وانقطاع. ونزوع الطنجي إلى الاستقلال الشخصي- وامتلاك العقلية المدققة المحققة التي رأى أن تركيا أفضل بلد يوائمها، لا يعني ذلك إطلاقا استخفاف الطنجي بالدين، بل العكس كان سليل أسرة عريقة في الفقه والتصوّف، ولكن نضع نزعته هذه في تنزيل القيم على واقع الحياة، وقد جسّدها ابن تاويت في حياته من خلال إيثاره لمفهوم الأمة وفق قالب خلدوني، ولذلك نراه يؤثر العزلة الخلدونية؛ لأن المعايشة و المنافسة لم يغيّرا الواقع الاجتماعي، وعليه فإن بناء مجتمع متعايش يبدأ حتما من مفهوم المواطنة الذي يؤسس بدوره لمجتمع متضامن يسمو عن الصراعات الدينية والمذهبية والطائفية ويسوده القانون.

كما أن تجربة الطنجي الفكرية والثقافية والوجدانية لفتت الأنظار إلى تكاثف جهود المسلمين في ضرورة فتح آفاق التكامل،فلم تكن التركية للطنجي كمثال؛ لغةَ تواصل ووظيفة فقط، بل كانت لغة جاذبية وشعور،لما لمخزونها من وقع على النفوس، وبمجاورتها للغة القرآن في شخصية محققنا

(2)ابن تاويت، مقدمة رحلة ابن خلدون،طبعة دار الكتب العلمية،مرجع سابق،ص11.

أضحت نغمة ذات إيحاءات وتأثيرات خيالية تركت بصمتها في عالم الكتب والبشر.والمنهج الصارم الذي أسّس له الطنجي في علمية التحقيق؛ والذي يقوم أساسا على فهم المؤلّف قبل تحقيق الكتاب، يُعتبر فتحا في عالم التحقيق ودراسة النصوص وقراءة الأحداث التاريخية، أثّرت في عديد الدراسات لاحقا، إذ يؤخذ منهج الطنجي في التحقيق والدراسة المعرفية للتراث كنموذج علمي يتمايز من خلاله التراث الحي، وتقعد به القواعد المنهجية الصارمة في نقل المعلومة وتحويلها وقراءتها.

قائمة المصادر والمراجع

1- إبراهيم، عبد الله، المركزية الإسلامية: صورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى.

2- أفلاي، زاهية، جهود العلامة محمد ابن تاويت التطوانيفي خدمةالتراث، منتديات أهل الحديث في تطوان،**www.tetouanhadit.com**

3- البيطار؛ نديم، الإيديولوجيا الثورية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع ،بيروت، لبنان ،ط2، 1402هـ، 1982.

4- - التوحيدي؛ أبو حيان، مثالب الوزيرين، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، بيروت - دار صادر . 1412 هـ - 1992.

5- التوحيدي؛ أبو حيان، المقابسات، تحقيق حسن السندوبي،دار سعاد الصباح، الكويت، ط2، 1992، المقابسة التاسعة عشرة.

6- الجرّاح؛ نوري، المشروع الجغرافي العربي ارتياد الآفاق: جسر بين المشرق والمغرب وبين العرب والعالم ، جامعة الكويت،ملتقى 2004.

7- الحميدي، جذوة المقتبس، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي .

8- ابن خلدون؛ عبد الرحمن، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي،طبعة لجنة البيان العربي،1962.

9- ابن خلدون؛ عبد الرحمن، رحلة ابن خلدون، تحقيق الطنجي ،منشورات بيضون،لبنان،2004.

10- الزركلي؛خير الدين،الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002.

11- ديفز؛ روبرت، مقدمة كتاب "الصوفيون"، لإدريس شاه، ترجمه إلى العربية بيومي قنديل،منشورات المجلس الأعلى للثقافة،القاهرة،ط1، 2005.

12- ابن سودة؛ عبد السلام، إتحاف المطالع، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997.

13- سراج؛ نادر، الحضور العثماني التركي في اللغة العربية: تجدد جاذبية أم تواصل ثقافي ووظيفي، مجلة التسامح، مسقط- سلطنة عمان، العدد12- 2005.

14- ابن شريفة؛محمد، ابن تاويت الطنجي محققا لآثار ابن خلدون، أعمال ندوة ابن خلدون 14-17 فيفري 1979، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط.

15-

16- الطنجي؛ محمد بن تاويت، مقدمة تحقيق كتاب رحلة ابن خلدون، منشورات بيضون،لبنان،2004.

17- الطنجي، محمد ابن تاويت، مقدمة تحقيق كتاب "رحلة ابن خلدون" لعبد الرحمن ابن خلدون الإشبيلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004.

18- عزب؛ خالد، ذاكرة الأمة في مخزن المستقبل،مركز الدراسات الإسلامية والمخطوطات،**www.islamonline.net.**

19- الفيروز آبادي، القاموس المحيط،طبعة مؤسسة الرسالة.

20- كولونا؛ فاني، آيات الصمود: الثوابت والمتغيرات الدينية في الجزائر المعاصرة،ترجمة لطفي فرج، دار العالم الثالث،القاهرة،ط1، 2003.

21- المرزوقي؛ أبو يعرب،الاجتماع النظري الخلدوني والتاريخ العربي المعاصر،الدار العربية للكتاب،طرابلس-ليبيا،1983.

22- مسكويه، الهوامل والشوامل، تحقيق ابن تاويت الطنجي.

23- المسيري؛ عبد الوهاب، رحلتي الفكرية في الجذور والبذور والثمار، دار الشروق، القاهرة،2001.

24- نصار؛ ناصيف، مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ، دار الطليعة، بيروت، ط5، 2003.

25- نويهض؛ وليد، ابن خلدون بين السياسي والثقافي:استشهاد الصديق وقرار العزلة،الوسط البحرينية - العدد 3045 - الجمعة 07 يناير 2011م الموافق 01 صفر 1432هـ.

26- heddadi,ibn khaldoun ;ibe-unisco.org

27- Gabriel Martinez-Gros; les conquetes arabes(650- 750); cehd.sga.defensse.gouv.fr

28- Rujuk butu At-t'arif bi; ibn khaldoun warihlatihi;syarqan wa Gharban; agama.html